

الحاصلة المبنية على العدل لا يتأتى أن تجرى في العمل الا اذا جعلت هذه المصالح قيد النظر

(١) الهجرة الى مصر

اذا كان أصلي من تراب فكأنه بلادي وكل العالمين أقاربي
دحا الله الارض ليعيش عليها البشر ويتناسلوا فيها فيعمروها ويحيوا مواتها
ويسيطروا على المخلوقات كلها ، فالارض هي المنزل العام يجلس أهله في أى ناحية
منه أحبوها وراقتمهم . ويتنقلون في بقاعها وأصقاعها ، ووهادها ونجادها ، وسهلها
وحزنها ، وبحرها وبرها ، على حسب ما تقضى أحوال الصحة ، وطبائع الاجسام ،
وخواص النفوس .

فقد هاجر الفينيقيون قديماً وأقاموا قرطجنة ، عمروها وغيرها من شواطئ
البحر الرومي ، وهاجر الفوط من جرمانيا الى جنوبى أوروبا وداهموا المملكة
الرومانية ، وهاجر الروم من بلادهم الى شواطئ البحر المتوسط وجزره وشواطئ
البحر الاسود وبلادهم وعمروها . وكثير من الامم أمثالهم غادروا مساقط
رؤوسهم ، واتخذوا لهم بلاداً ثانية استعمروها .

وهاجرت في العهد الحديث أمم كثيرة ، وأهم هجرة وقعت هجرة الاوربيين
الى أميركا ، عمروها بجنسهم الابيض بعد أن كانت خربة بالجنس الاسود . وكذلك
هجرة الهولانديين الى جنوبى أفريقية وهجرة الروس الى سيبيريا ، وهجرة القافقاسيين
والجرا كسة الى البلاد العثمانية ، وهجرة الاسرائيليين من بلاد روسيا ، وهجرة
المسلمين الروسين الى أميركا وغيرهم .

وللعرب حظ وافر من الهجرة والتنقل في الجاهلية والاسلام بل ان الهجرة
من طبيعة جزيروهم يعمدون اليها طلباً للسكناً والمراعى ، أو الاتجار بنتائج مواشيهم
وحاصلاتها ، وأول هجرة في الاسلام كانت هجرة عشرة من الصحابة وأربع نسوة
وقيل أكثر أمرهم الرسول بالهجرة الى الحبشة لما رأى ما يصيبهم من البلاء قائلاً :

لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه فخرجوا ثم عادوا بعد سنين ، وهكذا هاجرت العرب الى فارس ومصر والشام وأفريقية والاندلس والسند وكشغر لما فتحت . ولولا إقدامهم على الهجرة ما رأينا الاسلام منتشراً في قلب آسيا وأفريقية

ولا زال الى اليوم نشهد أثراً من آثار حب العرب للهجرة وقد زاده اليوم قرب المواصلات وسهولة السفر . نرى أهل حضرموت في جنوبي الجزيرة يهاجرون الى حيدر آباد الدكن الهندية فيكون معظم جيش البلاد منهم ، ونراهم يهاجرون الى جاوة فيكثر فيها سوادهم ويعتني بعض أفرادهم ، ونرى النجديين يهاجرون الى الهند في التجارة ثم يستوطنونها ويصبحون فيها أصحاب كلمة ونفوذ . ونشهد السوريين يهاجرون الى أميركا وأفريقية فيرتاحون ويتأثلون .

وانهيال السوري على هذا القطر (المصري) خاصة قديم جداً يصعب تعيين زمنه لاتصاله ببلاد الشام براً وبحراً ، ولم تكن القوافل في الاسلام تنقطع في البر كما ان المراكب لم تكن تنقطع عن السفر في البحر ، ولم تبحر بلاد الشام مصيف مصر واحداً مكملة لعمران جارتها . وقد وصف ابن فضل الله العمري في التعريف بالمصطلح الشريف طريق القوافل بين القطرين كما عقد القلقشندي في صبح الاعشي فصلاً في مراكب الثلج الواصل من البلاد الشامية الى الملوك بالديار المصرية . ومصر ما برحت كما وصفها ابن خلدون في القرن الثامن (بستان العالم ، ومحشر الامم ، ومدرج الدر من البشر) .

نعم هي محشر الامم ولا سيما الامم المجاورة لها من البر أو المناوحة لها من سيف البحر ، وذلك لان عمرانها طبيعي مستمر في معظم أدوارها ، فلا عجب اذا كانت مهاجر الامم من عرب وعجم ، قبل أن تكون نقطة الاتصال بين قارات أوروبا وأفريقية وآسيا بفتح ترعة السويس ، فما بالك بعد أن تم لها ذلك ، فمصر والحالة هذه مقصودة من أقطار الارض أكثر مما يقصد أهلها سائر الاقطار ، والامة التي تكثر في الغالب خيرات بلادها لا يهون عليها مفادرتها ، وطلب الحاجيات هو الباعث الاقوى على المهاجرة ، فاذا كفيها المرء يصاب بالوفاء وضعف العزائم .

وما فتىء السوريون والروم والترك والمغاربة مذ كانت حكوماتهم تتغلب على مصر ينزلون بلاد النيل ، فالروم حكموها زمناً طويلاً وكذلك الترك والعرب والجرأكسة ، فكان من هذه العناصر أن نزلتها بكثرة وأصبح أكثرهم فيها عمالاً وحكاماً وقضاة ، ورؤساء جند وعلماء ، وأرباب صنائع وتجارة ، ولم تكثر هجرة الأوربيين إليها الا عقيب الاحتلال الفرنسي عند ما بدأ الفرنسيين والطلليان والمجر وغيرهم من أمم الغرب يهبطون إليها ، وقد كثر سوادهم على عهد الخديوى اسماعيل لانه فتح أمامهم طرق الهجرة ، وأحسن معاملتهم ووفر لهم المغانم وطرق الكسب .

ولما قبض رجال الاحتلال من الانكليز على أزمة الاعمال أخذ الناس يمدون على مصر من كل فج عميق ، حتى انك لتجد فيها الآن من جميع الشعوب واللغات أناساً أسسوا فيها الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعلمية ، وكثير منهم اغتنوا من خيراتها بفضل كدهم ، وقد قدرت ثروة السوريين فيها بخمسين مليون جنيه أى بعشر ثروة القطر وهكذا سائر الامم ولا سيما الروم والطلليان والفرنسيين فان فيها من هذه الاجناس ألوفاً اغتنوا من خيراتها واتخذوها دار هجرتهم ووطناً ثانياً لهم ، وحال مصر اليوم مع المهاجرين اليها يختلف عن حالها مع أمثالهم فى القرن الماضى لان ثقة الامم تزداد بها الحين بعد الآخر ولان الاساس الذى قامت عليه حضارتها اليوم أساس مالى زراعى . خصوصاً وقد ظهرت الآن نتائج ما تعب القابضون على أزمة سياستها سنين فى تأسيسه ، واشتهر ذلك عند الخاص والعام فى الاقطار النائية بما يتصل بهم من أخبارها وأخبار من يفتنون من المهاجرين اليها ممن توفرت لديهم رؤوس أموال أو كانوا من أرباب العقل والعمل فكانت مصر ميداناً لظهور آثارها ، وربما لا يذكر الناس الا من نجحوا وقلما يذكرون من أخفقوا ، عادة فى البشر ولعلماء من موجبات أقوادهم على الكسب والكدح فى هذه الدار .

ولقد ساعد على كثرة الهجرة اليها حال بعض البلاد المجاورة لها من حيث اجتماعها ومادتها . فترى سكان جنوبى ايطاليا القاحلة يهاجرون اليها أكثر من القاطنين فى الشمال منها لان شمالى ايطاليا مخصب وأهلها مكتفون بما تجود به عليهم

أرضهم وسماؤهم ، وكذلك تكثر إليها هجرة سكان جزائر البحر الرومى ولا سيما بلاد اليونان الجديدة وأهل سواحل الشام وجبالها .

هذه مصر من حيث مهاجر الأمم فهى دولة كما يقول الساسة أو مشتركة بين أجناس وأديان شتى ، والتاريخ يشهد أنها كانت رحبة الصدر بالوافدين عليها فى كل العصور ، لئلا عريكة أهلها ، ولم يحدث هذا التمييز بين سكانها الا عندما أراد مهاجرو الافرنجة أن يستطيعوا على أهلها فحدثوا لهم ما يقال له « الامتيازات الأجنبية » التى منحولهم من الحقوق ما ليس للوطنى مثله ثم كثر توارد الاخلاط عليها ولم يكن الوافدون اليها على غرار واحد بل كان منهم المنورون العالمون وهم أفراد ، ومنهم المتعلمون المهذبون وهم أكثر ، ومنهم العامة الاميون وهم السواد الاعظم ، ومعظمهم طلاب رزق وسوقة نازعوا ابن البلاد وربما غلبوه لأن من جاء فى طلب غرض يحتمل للوصول اليه ، والغريب فى الغالب يكون اجراً والنشط من الاصيل لان الغربة فى ذاتها امارة من امارات النشاط

وطول مقام المرء فى الحى مختلف لديماجتيه فاغترب تتجدد والامثلة كثيرة فى هذا الباب من القديم والحديث فليس للوافد ما للقاعد من التحول والاتكال ويكفى ان فى لندن لهذا العهد وهى مهد الصناعات والارتقاء زهاء مائتى ألف رجل من رجال الامان استولوا على أعمالها المالية واستأثروا بها دون ابن البلاد المتعلم المنور الذى لا يقل عنه فى مواهبه . هذا فى عاصمة انكلترا فما الحال بمصر وأكثر الوافدين اليها هم من الشعوب القوية ومن أهل البلاد الباردة التى تبعث النشاط فى قلوب أبنائها وأجسامهم وعقولهم فيتخذون عدتهم استمدادهم . وكدهم رأس مالهم . وعتادهم وذخريهم قصدهم واقتصادهم . على حين قد أتت على الوطنى أزمان من الفوضى ضعفت بها قواه فاصبح لا يقوى على العمل الا اذا عوده زمناً ولقنه بالتعليم والتربية ، وقد فجأت الثروة والحريّة مفاجأة بهرته وحيرته ثم ان ابن البلاد فى الغالب لا يسف الى المكاسب التى يتنازل اليها الغريب فالاول يدل بأرومته أو يعتز بأمته ، والثانى يذل فى سد حاجته ، ونيل بغيته .

ولم أرأت الحكومة المصرية على عهد الوزارة الرياضية أن الوطنى يكاد يفنى

في الدخيل سنت لا ئحة صعبت فيها على النازل في مصر أسباب الحصول على حقوق
الوطنى الا بعد مقامه خمس عشرة سنة واشعاره الحكومة بعزمه على تغيير
جنسيته قبل حلول الوقت المعين بخمس سنين . فكانت هذه اللأحة غريبة في
بابها منعت بعض الطراء على القطر من ولوج باب الاستخدام في دواوين الحكومة
وحظرت عليهم تعاطى الاعمال الادارية والسياسية الا انها صرفت وجهتهم الى
اتخاذ الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعامة الحرة ، فافلحوا أكثر مما لو
كانوا حصروا كدهم في الوظائف الاتكالية ولم تحق عليهم كلمة « مصر للمصريين »
ومن هنا نشأ بغض كثير من المصريين للغرباء . كان السبب في ذلك أولاً منافسة
هؤلاء لأبناء البلاد في احتياز الوظائف ، وساعد عليها ما ألفت به بعض الجرائد
المسموعة الكلمة من عبارات التفرقة ، وهناك أسباب أخرى قواها أرباب
الاهواء والغايات فانتقلت بالتقليد الى العامة ومن نحا منحاهم من الخاصة .

ولست الشكوى التي يشكوها بعض الوطنيين من الوافدين في محلها كلها
لان من اغتنى بكده أو بطرق غير شريفة فانما غنمه له وغرمه عليه . ولو تسنى
لابن البلاد أن يعمل عمله ما تأخر ، وياليت خاصة هذه البلاد يسمون الى نزح
هذه الاوهام من عقول العامة حتى لا يبغيضوا غيرهم بسبب وبلا سبب ويخرج
بعضهم مع بعض لتحيل بوثقة مصر ذاك الدخيل الى الممدن الذي تريد أن يكونوا
كلهم عليه فقد ثبت أن هذه البوثقة المصرية أحات اليها فيما مضى التركي والالباني
والجركسى والكردى والحجازى واليماني والمراقي والشامي والمغربى والسودانى
والرومى والفارسى فأتى منهم بعد مقامهم قليلا في هذا الوادى مصريون يمارون
على مصلحة مصر وكثير منهم نفقوها وخدموها بعقولهم وأيديهم أكثر من
خدمة أبنائها لها تحت أسم مصريين . وما كانت قط بقعة من الارض معلومة
الحدود والمساحة وقفا على جنس خاص من البشر لا ينازعها فيه منازع تسرح
وتمرح فيها ماشاءت ، فالارض أرض الله ، والناس عباد الله ، وما أحلى بيت
البحترى في هذا المعنى :

ولا تقل أمم شتى ولا فرق فالارض من تربة والناس من رجل
وكل من نظر في نهوض الامم لا يعتم أن يرى بأن كل أمة ربيت على كره

غيرها وتجاغت عن الاختلاط به وحسن الانتفاع منه تنجى من الحسارة أكثر من الربح .
ولقد كانت بغداد من أكبر أمثلة التسامح في البلاد الإسلامية رفعت مقام
الغريب وأحسنست الاستفادة منه فكان يعد بغدادياً كل من دخل بغداد ،
تساوى في ذلك عجميها وديلميها وعربيها وتركياها ، ونسطوريها وروميها ومجوسيها
ومسلميها ، فجمع العدل من شملهم ، وأخت الراحة بينهم ، وعد سواء في النسبة
اليها من نزلها اليوم ومن نزلها منذ قرن ، وقد أعان على تكوين هذا المزيج
انتقاء الجنسية في الاسلام ، ورفق المسلمين باهل ذمتهم ، ولولا ذلك ما قامت
تلك الحضارة التي نسبت للمسلمين العرب مع أن أثرهم فيها كأثر غيرهم من الاجناس
والأديان ، ولكن العمل مشترك وهو منسوب لصاحب البيت ، كالجند يشقون
في الحرب ثم ينسب النصر لقائدهم .

وانا لا انزال نقول ان من حظ مضر أن تكون البلاد المجاورة لها محتاجة
اليها حتى أشبهت فاس في القرون الوسطى لما تواتر عيث الاعراب على القيروان
واضطربت قرطبة باختلاف بنى أمية بعد موت محمد بن أبي عاصم وابنه ، فرحل
من قرطبة ومن القيروان من كان فيها من العلماء والفضلاء من كل طبقة فنزل
أكثرهم مدينة فاس . قال صاحب الممجب ، في الثالث الاول من المئة السابعة :
ان فاس اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم
أفصح اللغات في ذلك الاقليم ، وما زلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب
وبحق ما قالوا ذلك وقال : ان القيروان كانت منذ الفتح الى أن خربها الأعراب
دار العلم بالمغرب اليها ينسب أكابر علمائه واليها كانت رحلة أهله في طلب العلم
فلما استولى عليها الخراب تفرق أهلها في كل وجه فمنهم من قصد مصر ومنهم
من قصد صقلية والاندلس وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب فنزلوا
مدينة فاس .

قصدوا فاس كما قصد الاندلسيون بلاد مراکش والجزائر وتونس وطرابلس
ومصر والشام لما أذن الله بانقراض دولتهم فعدوا من أهلها بل كما رحل الايطالى
والالمانى والاسبانى والانكليزى والفرانسوى الى أميركاهما ضاقت سبل الرزق
في وجوههم فعدوا أميركيين وأنشأوا يخدمون أميركاهما أكثر من خدمتهم لبلادهم

حتى اذا تذاشوا فيها جاء أولادهم أميركيين صرفا . وكلما ارتقت الأمم تتطال الى ادماج غيرها في مجموعها ، والأمم الافرنجية اليوم أكثر تسامحا في هذا المعنى من الأمم الشرقية كما يظهر بالاستقراء .

قال ابن حزم الاندلسي : ان جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقيين دون محاشاة أحد بل قد تيقنا اجماعهم على ذلك متفقون على أن ينسبوا الرجل الى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكنائها الى أن مات فان ذكروا الكوفيين من الصحابة رضى الله عنهم صدروا بعلى وابن مسعود وحذيفة رضى الله عنهم وانما سكن على الكوفة خمسة أعوام وأشهرًا (قال ابن حجر صوابه أربعة أعوام) وقد بقي ٥٨ عاما وأشهرًا بمكة والمدينة شرفها الله تعالى ، وكذلك أيضا أكثر أعمار من ذكرنا وان ذكروا البصريين بدأوا بمران ابن حصين وأنس بن مالك وهشام بن طامر وأبي بكره وهؤلاء مواليدهم وعامة زمن أكثرهم وأكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف وجمهرة أعمارهم خلت هنالك وان ذكروا الشاميين نوهوا بعبادة بن الصامت وأبي الدرداء وأبي عبيدة ابن الجراح ومعاذ ومعاوية والامر في هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم وكذلك في المصريين عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوي وفي المكيين عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير والحكم في هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا فيمن هاجر اليها من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولى الامر منا الذين اجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافه ، ومن هاجر منا الى غيرنا ملاحظ لنا فيه ، والمكان الذي اختاره أسعد به .

التفاضل بالبلا

ألف الناس التمجيد بالبلا والآباء والأجداد والمال والبنين عادة في البشر تكثر فيهم بكثرة الجهل ، وتقل بانتشار العلم . ولقد كان لأهل هذه البلاد من هذا التمجيد الباطل قسط وافر ساعد على انماؤه في النفوس جهل بعض ولاية

الأمر السالفين واتخاذ هذه الأضاليل حجة على من يريدون مناوأة وارجاعه إلى الطاعة . لطالما خطب الحجاج في أهل العراق ووصفهم بقوله أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق وأطلق عليهم من قبله ومن بعده من أمراء ذاك القطر مثل تلك الصفات . وما كانت هذه المعاملة لأهل العراق السياسية ولو كانت أخلاقهم كذلك وكان فيمن ولى رقابهم علم وشفقة لسمى السعي الحثيث إلى نزعها منهم بحكم العادة والاسوة والقدوة ، ولعل هذه الدعوة كانت جملة فلسفة أولئك الحكام وبيت قصيد حملهم على رقاب الناس ، وكان من أهل الشام أن وسمهم أعدائهم بكل كبيرة وألصقوا فيهم باطل التهمات . وهكذا الحال بين الشام والحجاز والشام والعراق .

فإن معظم المؤرخين والمؤلفين نبغوا في العراق فأكثروا في مصنفاتهم من الاحاديث الموضوعة على أهل الشام لقلة من كتب من هؤلاء ودافع عنهم . ومثل ذلك قل في المغرب مع مصر ومصر مع الشام وفارس مع الهند وكلها في الحقيقة سفاسف لا تساوى درهما عند المحققين ، وما البلاد في أمر الافضلية إلا سواء لا يفضل شرق عن غرب ولا جنوب عن شمال الا بالعلم النافع والأدب الرافع والعمران والسعادة . ولذا ضل رأى من وضعوا من المتأخرين كتباً خاصة في فضائل بلد أوطر . وأضل منهم من وضعوا أحاديث مكذوبة على الرسول صلى الله عليه وسلم في تفضيل مدينة أو بلد كما ضل من وضعوا الموضوعات طعنًا على فئة خالفت ما هم عليه .

وبعد فالأرض كلها سواء في هوائها ومائها ، دحاها الله ليعيش فيها البشر ويتنقلوا في أقطارها وقد لا تختلف الاقطار المتنائية في قوة الانبات الا قليلا فليس من العقل أن تمدح بلد لجبل فيها ، أو سهل فسيح حوالها ، أو نهر كبير يمر في وسطها ، ولا أن تذم أخرى لحرارتها ، أو لضيق حرارتها وجاداتها .

فكانت مصر ولا تزال مثلاً منذ ألوف من السنين طريدة من الأرض عرفت بخصبها وغناها الطبيعي . وكانت الشام ولا تزال منذ ألوف من الأعوام مشهورة باختلاف أهويتها ، ورقة نسيمها ، وتنوع جبالها وأوديتها فما عد ذلك فضيلة للأولى على الثانية ولا الثانية على الأولى . بل حسب لهما خاصية يمتاز بها كلا

القطرين بعضهما عن بعض . وقد أنصفهما في الوصف أحد عمال الدولة وقد سئل عنهما فقال : مصر مزرعة ممرعة والشام مصيف بهيج

ان كان ما تفاخر به البلاد بعضها بعضا هذا اذا سوغنا التفاخر فبالعلم والتربية وغلبة الفضيلة والخير على طبقات الناس كلها ، لا بالماء والهواء والواحات والجبال والالودية والاشجار والأثمار وكل ما وزعته الطبيعة بين بلدان العالم فمال كل منها بحسب حالته . دخل أبو الحكم المغربي الاندلسي الحكيم المرسى مدينة دمشق فلما حل ظاهرها سير غلاماً له يبتاع لها ماياً كلانه في يومهما وأصحابه نزرأ يكفي رجائين فعاد الغلام ومعه شواء ، وفاكهة وحلواء ، وفقاع وثلج ، فنظر أبو الحكم إلى ما جاء به وقال له عند استكثاره أوجدت أحداً من معارفنا فقال لا : وانما ابتعت هذا بما كان معي وبقيت منه هذه البقية فقال أبو الحكم هذا بلد لا يحل لندى عقل أن يتعمده ودخل وارتاد منزلاً وسكنه وفتح دكان عطار يبيع به ويطب وأقام على ذلك إلى أن وافاه أجله

ومثل ذلك ما وقع للملك المعظم شمس الدين توران شاه أخو السلطان صلاح الدين يوسف لما تمهدت له بلاد اليمن واستقامت أمورها مل المقام بها وحن إلى الشام وفيها نشأ واشتاق إلى خيراتها والتمتع بشمراتها اذ أن اليمن محرومة ذلك . قال ابن خلدان فكتب إلى أخيه صلاح الدين يستقبل منها ويسأله الاذن له في العود إلى الشام ويشكو حاله وما يقاسيه من عدم المرافق التي يحتاج اليها فأرسل صلاح الدين رسولا مضمون رسالته ترغيبه في الإقامة وانها كثيرة الاموال ومملكة كبيرة . فلما سمع الرسالة قال لمتولى خزانته : احضر لنا ألف دينار فأحضرها فقال لأستاذ داره والرسول حاضر عنده : ارسل هذا السكيس إلى السوق يشترون لنا بما فيه قطعة ثلج .

فقال أستاذ الدار : يامولانا هذه بلاد اليمن من أين يكون فيها ثلج ؟ فقال : دعهم يشترون بها طبق مشمش لوزي . فقال : أين يوجد هذا النوع ههنا ؟ فجعل يعد عليه جميع أنواع فواكه دمشق وأستاذ الدار يظهر تعجبه من كلامه وكما قال له عن نوع يقول له : يامولانا من اين يوجد هذا ههنا ؟ فلما استوفى الكلام إلى آخره قال للرسول : ليت شعري ماذا اصنع بهذه الاموال اذا لم انتفع بها

في لذاتي وشهواتي فان المال لا يؤكل بعينه بل الفائدة فيه انه يتوصل به الانسان الى بلوغ أغراضه .

ولعمري هل يصح أن تجعل أمثال هذه القصص حجة في أفضلية دمشق على غيرها من أمهات المدن حيث المعيشة غالية وهل هذا الرخص مما ينبغي أن يفاخر به وأهل الاقتصاد في عصرنا يجعلونه اذا استحكم من بلد شؤماً عليه ويمدون البلد كل البلد الذي غلت فيه أسعار الحاجيات والكاليات وارتفعت الاجور والارتفاقات على نسبتها . والامثلة على ذلك كثيرة فانه يبلغنا لهذا العهد عن بلاد الاناضول وهبوط أسعار الماء كولات فيها لقلة ما يصدر عنها مالا يكاد يصدق لولا تواتره على ألسن الطارئین على ذلك الصقع فهل تفضل السكنى فيه على الروم أبلى المرتفعة أسعار الارزاق فيه . وبعد فان كان لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى فلا فضل لبلد على آخر إلا بالعلم والعمل والسعادة الحقيقية .

النزلاء المسلمون^(١)

قضى الله على هذا القطر أن يكون منذ القديم مهاجراً لأمم الارض ولا سيما من الاولى قبيض لهم الحكم عليه من روم وفارس وترك وجرس وكرد أو كانوا مجاورين له من شماله وجنوبه وشرقه وغربه فيأتيه بعضهم متاجراً وآخر موظفاً وفريق غازياً ، وغيرهم مسالماً . وتربة مصر الجيدة تبتلع من تبتلع من تلك العناصر وتحيلهم بوتقة النيل مصريين . ومنهم من يعود من حيث أتى بعد أن يقضى في ربوعها زمناً ، وقد استفادوا منها مادياً أو معنوياً .

وكان بعض تلك الاجناس اذا نزلوا العاصمة وقواعد المدن في القطر يجمعون في بقعة واحدة ويؤلفون جماعة أو حزباً ويتخذون لهم حارات خاصة بهم يسكنونها ، ومحال تجمعهم وعادات يحرصون على الاحتفاظ بها والجنسية علة الضم ، أو كما قال امرؤ القيس « وكل غريب للغريب نسيب »

(١) نشرت في جريدة المؤيد يوم ٢٤ ربيع الاول سنة ١٣٣٦ هـ

أما اذا نزلوا الارياض فقلما كنت ترى لهم كلمة ، فيبقون في غمار السكان في الغالب ويمتزجون باهلها ، فيجعل ذلك لهم فقد لغاتهم أن يكونوا لا يتكلمون العربية ، أو فقد جنسياتهم ان كانوا عربا ، وما هي الا بضعة سنين حتى يصبحوا مصريين صرفاً .

والغالب أن كل فاتح يستعين بالغرباء على قيام أمره ويعتمد في الاكثر على أناس من بنى جنسه . هكذا فعل الرومي والفارسي قبل الاسلام ، وهكذا فعل التركي والجركي والكردي والارناؤدي بعده . وان كان الاسلام قد منع من القول بالجنسية والعصبية ، ولكن الدول تراعى في هذا الشأن حالة الزمان والمكان . ثم ان الغالب يرى من الواجب عليه أن يقرب اليه الاقرب والاقرب ، والاقربون أولى بالمعروف .

هذا اجمال من تاريخ نزول الدين هبطوا مصري الادوار السالفة وانا لرى منه اليوم مثالا بجسما من المختلين ، وتوسيدهم الوظائف الكبرى الراجعة الى أبناء جلدتهم ، فاذا لم يجدوا منهم من يرتضونه ، يختارون أن يوسدوها ان أمكن لرجل أوروبي بدل المصري أو العثماني ، كما يختارون توسيدها للمسيحي أو غيره من غير أهل الاسلام

بمثل هذه الحال السياسية يحدث الخلاف بين الوطني والنزلي ، ويلتف كل فريق على فريقه ، والحكام من وراء ذلك يسرون بهذه الفرقة بين الاجناس والعناصر ما دامت القاعدة التي سارت عليها الحكومات هي « فرق تسد » ولذلك كان يزداد هذا التنافر بين الدخيل والاصيل كلما نفخ الحاكم في ضرامه ، ويخمد كلما انقطعت عنه مادة التفريق ، وهذا ما دعا الى أن تكون لكل عنصر من النزلاء جماعاتهم الخاصة بهم ومدارسهم وكنائسهم وحاتهم ومحالهم وأنديةهم .

لا يكاد يمضي شهر الا ويحيثني كتاب من جماعة يطلبون الى أن أشاركهم في جمعية سورية يريدون تأسيسها لغرض اجتماعي أو أدبي أو خيري وأن أساعدهم مساعدة أدبية بالقلم ، ان لم تتيسر لي مساعدتهم بالدينار والدرهم فاعتذر اليهم فمنهم من يقبل العذر ، ومنهم من لا يقنعه قولي ويحمله على ما يقع في نفسه من الظنون . ومعظم هؤلاء الداعين جماعة من المسيحيين يريدون أن يكثروا بالمسامين

سوادهم وليستعينوا بهم على غرض يرون فائدته لا بناء بلادهم .
المسلمون العثمانيون أو السوريون في مصر أفراد قلائل بالنسبة لسائر العناصر
ولذلك لم ير اللورد كرومر في كتابه «مصر الحديثة» أن يخصهم بكلمة لثقله سوادهم
وبسبارة أخرى أن أكثرهم من التجار أو من السوق لا يدخلون في مسائل
البلاد العمومية ولا يتأتى للاحتلال أن يعتمد عليهم لأن الدين يمنعهم من خدمة
أفكاره وهم يرون المصريين اخوانهم في الدين والتابعة واللغة والجوار ، وهل
أعظم من ذلك رابطة ؟

وما راغنى أُمس الا كتاب من أحد المسلمين السوريين من تجار هذه العاصمة
يقول لي انه ساع مع بعض أصحابه في تأسيس جمعية خيرية اسلامية سورية بالقطر
المصري تساعد الفقراء السوريين المسلمين ممن لا ناصر لهم ولا ملجأ يلجأون اليه
عند الشدائد وذلك لأن اللقاء حبلهم على غاربهم مما يشين سمعتنا الادبية بين
الخاص والعام ولا فرق في ذلك بين الدمشقي والحلبى والبيروتى والطرابلسى وغيرهم
لأنهم كلهم أبناء طائفة واحدة وتظلمهم راية واحدة . ويدور محور أعمال هذه
الجمعية على مواساة الفقراء وتربية الايتام على الطرق الحديثة وادار الارزاق
على الارامل والمرضى ، وتجهيز الموتى وتسفير الفقراء وتتولى الجمعية غير ذلك
من أعمال الخير وستكون قيمة الاشتراك في الشهر عشرة قروش صحيحة واذا
تبرع بعض الاغنياء بأكثر من ذلك فيكون لهم الفضل الخ

هذه خلاصة السكتاب وفيه من الحث على مساعدة الجمعية ما هو طبيعى
ولسكن حسن ظن القوم بى لا يمنعنى من النصيح لهم بأن يجعلوها جمعية خيرية
مطلقاً بدون وضع اسم «السورى» عليها وأرجو أن لا يحمل ذلك على ضعف فى
الوطنية بل أن يتدبر القائمون بالامر فيما أقول .

المسلم السورى هنا لا يعتبر كما يعتبر غيره خصوصاً وهو كما قلنا لم يدخل فى
معتك السياسة المصرية ، ولذلك ينظر اليه المصرى بأنه أخوه ووطنيه يعامله كما
يعامل ابن النمل ويروح اليه ببثه وحزنه ويصاهره ويعاشره ويرتبط به ولذلك
تدعو الحكمة أن يقوم السورى هنا — ان كان لا يرى مندوحة له عن أن يسمى
نفسه بهذا الاسم — فى جميع أعماله تبعاً لأخيه المصرى

ليعمل السوري الخير ولكن لا على أنه سوري بل على أنه مسلم أو مصري ،
لأن الأدب يقضى عليه أن يندمج في جسم أخيه المصري لينتفع كلاهما بصاحبه .
وما جزاء من يحب إلا أن يحب . ومن أدب الغريب أن لا يجهر بأن مصلحته تخالف
مصلحة من ينزل عليه

المسلمون من أهل البلاد المجاورة لمصر ما زالوا منذ القديم يهبطون هذا
القطر كسائر الأمم ، ولكنهم يندمجون في سلك أهله ولا يلبثون أن تكون لهم
نفس حقوقهم وذلك لما وقر في النفوس من انتفاء الجنسية في الإسلام ، ولأن من
مصلحة النزول أن يكون تبعاً للزميل لا يقاومه في رغباته بل يخدم الغرض الذي
يرمي إليه ما دام الغرض لا يتمدى طور العقل فيجد النزول من ابن البلاد كرم
الوفادة بما لا يعذر به ابن البلاد نفسها . والغريب بالنظر لمشاطه إذا لزم الأدب
مع من ينزل عليه يريح أكثر من حرصه على الأسماء

وما سورية ومصر إلا بلدان متجاوران والسوري الذي ينفع مصر مصري
والمصري الذي ينفع سورية سوري . والحمد لله أن خلقنا في زمان سقطت معه دولة
التحزب للجنسيات ، فلم يعد الناس كما كانوا في الأزمان السالفة يعادى بعضهم بعضاً
في القطر الواحد بل في البلد الواحد بل في الحارة الواحدة على أسماء ما أنزل الله
بها من سلطان اللهم إلا عدم المعرفة بطبيعة الكون ، وطبيعة تنقل الناس في
هذه الأرض منذ القديم

الحمد لله أن جئنا في زمن نسمع فيه أن البشر يفكرون في اختيار لغة واحدة
تجمعهم ليتعارفوا بها ، وأن يزيلوا الحدود من تخوم الممالك حتى لا يكون بين أمة
وأمة ما يصددهما عن الاختلاط وجلب المنافع ودرء المضار

وان كل عاقل ليقن بأن النعمة التي ضرب على وترها بعض السوريين في
هذا القطر على عهد انتشار حرية الأقلام لم تكن إلا من باب « خالف تعرف »
أراد بها أربابها التدرع إلى نيل الشهرة أو أغراضاً مادية أخرى . ولذلك أخشى
أن تكون تلك النعمة التي سكنت نائمها الآن هي التي بقيت بقاياها في أذهان
بعض المسلمين من السوريين فقاموا اليوم يريدون أن يخرجوا عن الجماعة
ويؤسبوا لأنفسهم بأنفسهم جمعية تضم شتاتهم ولو فعلوا لكان شرها أكثر
من خيرها وعلى الله قصد السبيل

غوطتنا عشق^(١)

إيه غوطة الفيحاء ، مجلى الطبيعة ومنفى الانس ، وروضة الطيبات ، ومهبط
التجليات . سلام زكى كتر بتك المسكية ، جميل جمال بسطك السندسية ، عطر
كانوار أدواحك الجنية . وتحية طيبة تتساقط على عمرانك ، تساقط الوابل والطل
على جناتك الغناء ، وحراجك الغلباء ، وأشجارك الملياء ، وغلاتك الكثيرة الاتاء
سلام عليك يا مستقر النماء ، وقرارة الهناء والرخاء ، وخير خلوة ينزع الى
ارجائها الناسكون والعالمون ، ويتقلب فى أجوائها عشاق الطرب وأرباب الجون .
فيك تتجسم عظمة خالق السموات اذا بالغ فى الافضال على الارضين ، وتبدو
همة الخلق اذا صحت عزائمهم أن يكونوا حاملين لا حاملين ، فليس فى الاقاليم
ما يفوقك باعتدال المواسم ، وافترار المباسم ، وتلون المظاهر ، وتنوع الثمرات
والازهار ، وتلوى الجداول والانهار ، وتجلى الطبيعة فى العشايا والاسحار

سلام على وادي دمشق انه آية الحسن والاحسان ، فيه تتجدد الحياة كل حين
لانه بمنزلة الربيع من الزمان ، ويجلو العيش فى ظل افيائه على سداجته مهما كان
مرأ ، وتطمئن النفس الى التنقل فى رباعه برداً كان أو حرأ . إيه غوطة جلق لم
يؤثر عنك أن أمسكت خيرائك حاماً عن أبنائك ، فلا تفتأين على الدهر تخرجين
لساكنيك أفلاذ أ كبادك ، على تعاقب الامم والدول ، وتصديقين الود لسكل من
يطلب قربك ، فيعيش معك فى رخاء وصفاء

سلام على سكونك فى الليالى الظماء والقمرء ، ربيعاً كان أو صيفاً أو
خريفاً أو شتاء ، وهنيئاً مريئاً لمن يستمتعون بالنظر اليك من الصباح الى المساء ،
ويتعهدونك بالحرث والكرث والتقليم والتنقية والزرع والارواء ، سواء عندهم
حمارة القيظ وصبارة القر ، وظلمة الليل وشمس النهار . سلام عليهم انهم مثال
النشاط فى المزارعين ، لا يضمنون على أرضهم بأوقاتهم واتعابهم ، وهى تجودهم

(١) نشرت هذه المقالة والمقالتان بهما فى جريدة المقتبس سنة ١٣٣٣ (١٩١٥) وأسلوبها

أسلوب الشعر المنتور المروف عند الافرنج

ضروب الخير والمير كلما جودوا زراعتها ، وتزيدهم بركات على بركات ، كلما عودها
فأحسنوارعايتها ، وهم مهمل صهرت جسومهم حرارتها ، وصغرت سحناتهم وطوبتها
بيض الوجوه شم الأنوف ، لأن رزقهم مناط أيديهم العاملة ، لا يعتمدون في
تحصيل قوتهم ، على غير قوتهم ، ولا يتكاثرون إلا على من ينزل الخيث ، ويمرع
الزرع ، ويدر الضرع ، ولو حسن فيها نزع الفضول ، من العقول ، وأنبرت
بأنوار علوم المدنية على الأصول ، فتمهد أبنائها بالتربية كما تربي عندهم الرياض
والحقول ، وتوقى مما يؤذى الزروع والثمار والبقول ، لسكانت خير بقعة يسكنها
ساكن في الحياة ، ولصح عليها قول من قال : طوبى لمن كان له في أرضها مريض شاة
سلام غوطة دمشق كلما غردت أطيارك فلك على المشاعر سجع الحمام واليمام ،
وهديل العندليب والهازار ، وتغريد الصفور والشجرور ، كيف لا تستهوين
النفس ، ونميق الغربان ونقيق الضافدع ، اذا ردهما الصدى في لياليك ، يفسرها
القلب بعمان لا تفهم منهما في السكور الاخرى ، كما يفسر في النهار نغاء الماعز
والجلان ، وجوار البقر وخوار الثيران

فسلام وألف سلام عليك يا كريمة الطبع ، وبديهة الصنع ، وعريقة المجد ،
ونبيلة الجدد والجدة ، وزكية العرق ، وهينة الرزق ، وطيبة النجار . والمحسنة
اللاهل والجار ، ففي مغانيك تصفو النفس من كدروات هذه الحضارة الملتفة
وتنجد من سماع فظائع الانسانية المعذبة ، وبقليلك — وان كان قليلك لا يقال
له قليل — يغتبط الانسان ، ولا يتكالب على حطام الدنيا تكالب الضاري من
الحيوان ، ويطلع الزهرة ربة الجمال من منافذ أفقك ترحي الى الخيال روحاً من
عندها ، فتتميز القرائح وترق العواطف ، وفي منبسط صعيدك الطيب ، يساو
الخطر همومه ، وتطرب الحواس ، من دون ماكاس ، ولا نفمة أوتار وأجراس
في هذا الريف العجيب تقرأ سور العدل الالهى في تقسيم الارزاق فلا فقر
مدقع ، ولا غنى مفرط ، ويعيش القائمون على تعبه عيشاً متشابهاً الا قليلاً ،
يغنى أفرادهم بذكائهم واقتصادهم ، فلا ترى في فقرائهم سلاطة الجياع أرباب
النهم ولا في أغنيائهم قسوة قلوب أهل الرفاهية والنعم ، فسبحان من وفر للغوطة
قسطها من الغنى والغذاء ، وضاعف لها حظها من الجمال والاعتدال ، وأجزل لها

عناصرها الحيوية فزادها كثر الجديدين نماء الى نماء .

شبه جزيرة كليبولي

الى هذه البقعة الطيبة بمناظرها وغاباتها وسهولها وجبالها يهوى اليوم ويحق له أن يهوى فؤاد كل عثمانى يحب هذا الوطن المحبوب ويتفاني في التبرك بتربته ويخاف عليها من عوادي المعتدين ويكره لها ظل المستعمرين من الغربيين جزيرة مستطيلة كهذه يبلغ عرضها فيما أذكر من ستة كيلومترات الى ثلاثين وطولها ٨٥ كيلومتراً تتقادفها القنابل والقذائف والدمرات والمنفجرات وطائرات السماء ودوارع الماء منذ زهاء سبعة أشهر وهي لا تزال صابرة على الاذى باسمه الوجه للقاء المدى

في هذه الشبه الجزيرة تجلى العقل العثماني وتم آخر ما وصلت اليه مدارك أبناء هذا الوطن في استكمال أسباب الدفاع والاخذ بحظ أوفر من أساليب الكر والفر والتعبئة والمصاف ولولا هذه العناية والاستهانة بكل عزيز في سبيل الذود عن حمى هذه الشبه الجزيرة لتبدلت وجه الحرب الاوربية ، ولذا لنا من الاضطهاد ما لا يكاد يخطر لنا على بال

هذه الارض المحاطة بالبحر من أكثر أطرافها عرفت دول الاتفاق المربع أن هناك قوة أسمى من قوة البشر وهي القوة الالهية التي استند اليها العثمانيون قبل كل شيء ودونها قوى الاساطيل والفواصات والطائرات والمقذوفات والمفرقات يضاف اليها يقين مازج الافئدة والارواح من ثقة الانتصار وكراهة ليس بمدى غاية لحكم الاجنبي ، والتشبيع بمعاني الوطنية والجنسية

وقفت على جبهات الحرب في مواقع (اري بروني) و (انافورطه) و (جنناق قلعه) وأشرفت على انحاء (سد البحر) وهي المواقع الاربعة التي دار ويدور عليها القتال واشتد فيها الطعن والنزال ف معظم في عيني غناء جيشنا ، وفاخرت نفسى بقوادنا وضباطنا وجندنا ، وأيقنت اننا اذا ضممنا شملنا في كل نازلة وكل شأن ، وتذرعنا بهامة الاسباب التي يتذرع بها البشر الممدن ، نضاهي أعظم الدول منعة ومضاء ، وها قد قضينا باعتصامنا بحبل الله على مطامع الطامعين وهم ما هم بقواهم البرية والبحرية

سبعة أشهر مضت على دفاع جنّاق قلعة والمدو يختر العباب بدوارعه
وطراداته ورعاداته ومدمراته ، ويخرج الى البر الكتائب أثر الكتائب ، ويستجاب
السلاح ويتذرع بأقصى ما وصل اليه طوق الانسان من التفنن في إرهاب الخصم
واقترحام السبل ، فلم يستطع التقدم شبراً عن المكان الذي نزله أول يوم ، ولا
يزال جيشه تحت حماية أساطيله لا ذرى له ولا أكتات وجيشنا يطل عليه اطلاقاً
يذيقه كل يوم مرارة الهزائم ألواناً وأشكالاً ويفعش القتل في رجاله حتى قدر
الهالك منه بنحو مائة ألف فقدّها وفقد معها جانباً من أسطولها . وافترق عشرات
الملايين من الدنانير وهو في مكانه لم ينل وان ينال بحول الله ما تطمع به نفسه
من استباحة جمانا

هذا المضيق هو في الحقيقة مفتاح دار الخلافة وكان المتفقون على مثل اليقين بأن
عمله سهل يحتاج الى بضعة أسابيع ولكن خيب المولى ظنّونهم ونعى عليهم اعتدادهم
بقوتهم وألقى عليهم أمثلة مما ينال الظلمة من سوء المنبة . وان التويه للعبث
بمقول الناس لحكمهم كما تحكم البهائم ان جاز يوماً فلا يجوز على الامم في آخر ،
وأن الله لا يضع عمل عامل

ان دفاعنا في جمانا في جنّاق قلعة قطع آخر عرق من الآمال للمتفقين وقضى
على مطامعهم فينا أبد الدهر ان شاء الله ومن رأى ما رأينا هنا من ابداعنا في
طرق القتال وشاهد استعدادنا في منصومنا وطرقنا وسلاحنا ومدافعنا ونظام
جيشنا وما ينبغي له من المؤنة والذخيرة والتمريض ، يجهر بصوته قائلاً هذا عمل
لا يتهيأ إلا لأمة تحب أن تبقى ، ولا يتيسر ذلك الا لمن كتبت له السعادة

غابات شبه جزيرة كليبولى ونجّادها ووهادها وسواحلها وسهولها ، لقد طلّت
في ربوعك دماء زكية من دماء الميّانين ولكنها ستبقى على جبين الايام مسكية
الاريج عطرة بالثناء تنم عن معرفة من استشهدوا في سبيل الفرض الوطني ، وذاقوا
معنى الوطن والوطنية . ان الدم الطاهر الذي أريق على تربتك جعل لها ريحاً من
ريح الجنة وسيكون لمن فادوا بها من الذكر الجليل ما كان لا بطل المسلمين في وقائع
الصليبيين وشعار ذلك : هذا عمل أفراد قتلوا ليحيوا أمة . وفادوا بنفوسهم في
سبيل الله ليحموا دمار الخلافة المعظمة ، ويربأوا بهذا الوطن عن أن يستباح

جاءه وبجافظوا بارواحهم على آخر دولة اسلامية مستقلة جمعت شمل الاسلام والمسلمين وحتت حى الحرمين الشريفين .

كلما هبت الصبا والشمال على أرجاء شبه جزيرة كليبولى ، وطلعت عليها الشمس وغربت ، وأقربت السماء وأظلمت وأمطرت وأثلجت ، وأرعدت وأبرقت ، يردد لسان الحال فيها هذه ثمرة التضامن بين أعضاء البيت الواحد . هنا قضى العربى والتركى والكردى واللازى وغيرهم لأعلاء كلمة الحق واثقاء عادية الدخيل الثقيل . هنا نظم العثمانيون أرقى جيش انتظم لهم منذ عهد الفاتح وسليم وسليمان وتشجع أهله بروح الوطنية ، وغنم غزاتهم أحياء وأمواتاً سعادة الدارين

أرض شبه جزيرة كليبولى ، مستبقين مقدسة فى نظر كل مسلم كما قدس الله الأرض المقدسة ، وستذكر لك الاجيال عقيب الاجيال ، والدهور أثر الدهور ، بالاعظام والاحترام ، كما تذكر هذه الحرب العامة بالهول والاستغراب . أنت كذبت البشر فى ادعائهم أن (كل محصور مأخوذ) وأكدت لهم عكس القضية فى أن (كل محصور محفوظ) . فسلام عليك محاربة ومسالمة ، وألف ألف رحمة ورضى على عظام شهداء ضمتها تربتك الطيبة ، ومروجك السندسية وتلماتك الزمردية

جبال طوروس

هذا مضيق يسمونه اليوم (كوك بوزازى) ومعناه مضيق الكيلة كيلة الجبوب ، كانت العرب تسميه الدرب أو الدروب ، ذكره امرؤ القيس ملك الشعر فى الجاهلية فى شعره لما توجه الى قيصر الروم وكان مشى معه صاحب يقال له عمرو ابن قيس الشاعر فلما رأى عمرو الدرب وهو الحاجز بين بلاد العرب وبلاد العجم بكى جزعا لفراقه بلاد العرب ودخوله بلاد العجم ففى ذلك قال امرؤ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أن لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

أما نحن فابتهجت أنفسنا وأيم الله واطمأنت لما اجتزنا الدرب وعلمنا اننا نركب بعده القطار ولم يبق لنا الا ساعات معدودة لتبلغ دار السلطنة بهجة الدنيا وقرارة الدعة ومدينة المنعة ومعهد الظرف واللفظ وبلد الشعر والخيال . أن

الدرب أو مضيق (كولاك بوغازى) واد تتخلله الانهار والجداول ، ويكسو شجر الارز نجاده ووهاده ، على صورة تظنها من هندسة أعظم مهندسى الزراعة لمهندنا وما هو فى الحقيقة الا مما نبت واستطال بنفسه . أنت لا تنفك منذ تظاً عتبة جبال طوروس ، تشم أريج شجرها ورندها وعرارها . ولا تسأم من مناظرها لانها متنوعة فى تقاطيعها وجمال هندستها . بحيث لا تمل العين النظر ، ولا الأنف الشم ولا الأذن السماع . لحفيف أشجاره ، وتمايل أغصانه ، وثناء حماله ، وخيرير مياهه ، وأصوات غنديه وهزاره

أن من يسمع من بعد وصف (كولاك بوغازى) يقول فى نفسه : ماذا عسى يكون فى هذا المضيق ؟ وجبال الدنيا كثيرة متشابهة ، صخور وتلعات : واكبات واطلون ومنفراجات ، وشيخ وقيصوم ، وسنديان وزان . ولكن جبلنا هذا لا يشبه الا جبل بحال ، لأن مدير الاكوان خلقه على غير مثال من الجبال ، ولون صخوره وأحسن قطعها فنما الكبير الهائل ، ومنها الصغير الحقيق ، وترتبه حمراء وسوداء وبيضاء ترى تارة فى الهضاب طريقاً معبدة من الصم الصلاب ، أو مرصوفة بالتربة الذكية ، غرست فيها يد القدرة أشجار الارز غرساً يتخلل الهواء بيننا ، ولا تنبو العين عنها لعدم نظامها ، واختلال هندستها ، وتراعى ابعادها . وهناك الاشكال الهندسية برمتها : فن تلة مستطيلة ، الى أخرى هرمية ، وبجانبها ذروة ذات شكل بيضوى ، وآخر محدوب أو مربع ، أو قائم الزوايا ومنفرجها جعل بعضها الى جانب بعض ومساحتها السطحية متقاربة . وكلها مزينة بالاشجار . أنت هنا تجتاز واديا ولا كالاودية . بحيث تعطى الحق لمن قال فى القدم « ماء ولا كصداء » و« مرعى ولا كالسمدان » و« فتى ولا كمالك » ولورأى القائل الدرب لقال : مضيق ولا كهذا وجبال ولا كطوروس

هذه العظمة فى الخلق التى تراها ماثلة على أمتها فى جبال طوروس التى أعجزت الفاتحين من الاقدمين والمحدثين . فكانت كالحاجز الطبيعى الذى لا يرام بين الثغور وبين بلاد الروم . عامرة بطبيعتها ، هندستها الفاطر ، وحفها بانواع البهجة والزينة ، بحيث لا تملها نفس مهما اکتأبت ، وتود لو تقضى فيها شطراً من العمر ، بعيدة عن ضجة العالم وأوهام الخلق ، وترهات المتمدنين والمتبررين

جبال طوروس البديعة ، لقد أعجزت الفاتحين عن اجتياز مضايقتك ، كما
أعجزت الشمرء والمصورين عن رسم بدائعك وخصائصك . فها هذا الابداع
الذي عز نظيره في الاصقاع والبقاع . إيه يا منطقة البكم بالشمر ، ومعجزة المتكلمين
في ذكرى فضائلك وفواضلك

ان جبال الالاب التي استتبت الالاباب ببدائعها ، وجبال الكاربات التي اشتهرت
بصياصيتها الطبيعية ، وجبال حملايا المعروفة بسموها ، هي دونك في جمع كل هذه
المعاني ، ولو هيء لك ما تهيأ لتلك من يد صناع ، تحسن حواشيك . وتهذب من
أطرافك ، وتتعهد أزهارك وأشجارك ، بآخر ما اهتدى اليه العقل البشري من
ضروب الصناعة ، لكنت لعمر الحق معهد اجتماع المصطافين والمرتبين ، ومسرح
أنس طلاب اللذائذ الطبيعية والصناعية ، وخزانة ثروة لا هلك لا ينضب معينها
وتنضب مياه الرافدين دجلة والفرات . ولكنه تعالى لا يمنح بلداً كل ما يحتاجه
ولا يجمع في شخص كل الصفات والمزايا . فسبحان من قسم الخصائص بين البلاد
كما قسم الحظوظ بين الجماعات والافراد

على قبر أبي الفدا في حماة^(١)

حنانيك اسمعيل أجبنى فدتك نفوس الملوك يا عالمهم وعادلهم وسيدهم ، كنت
في عصرك مثال العمل الصالح ، وها أنت لمن بعدك عبرة لمن يعتبر .
زرت قبرك الشريف وذكرت سيرتك المثلى ، فبكيت على الاسلام والعرب ،
وقالبت بما قرأته على ضريحك بين السداجة الغالبة عليك ، ونفخة الالقاب بعدك
قرأت : « هذا ضريح العبد الفقير الى رحمة ربه الكريم اسماعيل بن علي بن
محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب عمر في شهر سنة سبع وعشرين
وسبعمائة » جملة لا يجوز نقشها اليوم على قبر أحد العامة ، فإني أنت منها يا أبا الفدا
في مفاخرك وسؤددك ، ومجدك التالذ والطارف

حنانيك اسماعيل كنت في حياتك قدوة الملوك العادلين ، تعلم الناس حب

(١) كتب هذا الفصل سنة ١٣٢٩ - ١٩١١ ونشر في المجلد السادس من المقتبس

الخير ، وتعلم العلماء فيما توفروا عليه ، والفتاحين ما يفاخرون بمعرفته ، والحكماء ما هو ثمالة امجادهم ، وها أنت الآن رهين حفرة قد كاد ينسى بين قومك ذكرك فلا تبدى ولا تعيد ، وقومك نسوا دينهم ودنياهم فكيف لا ينسون رجالهم نشأت أيها السلطان المادل من بيت عز وملك ، فلم تأخذ الزخارف بلبك ، بل تخرجت في العلم ، وربيت على أدب النفس وأدب الدرس ، حتى جاء منك عالم بل معلم للعلماء بسيرته وتقننه .

نشأت نشأة عالية في القرون الوسطى وغيرك من الملوك نشأوا ولا سيما بعدك نشأة جاهلية : على الحجر والزمر ، والقمر ، لا يعرفون غير القصور ، والولدان والخور ، وغاية مفاخرهم انهم يبطشون ولا يبالون ، يقتلون ولا يتألمون ، يتماظمون ولا يتواضعون ، يقضون فلا يراجعون ، يأمرون ولا يعدلون أضحت أحكام بعض الملوك بعدك ذوقية ، وأعمالهم على الأكثر استبدادية ، اتخذوا الاسلام ديناً وهو منهم بريء ، وعبثوا بالرخص والعزائم ليس لهم وازع من أنفسهم ، ولا رادع من أمهم . أضحوا جبارة لا ملوكا ، وشياطين لا انسا ، وأنعاماً لا يعرفون الا ما فيه راحتهم ، وتوفير قسطهم من اللذائذ والبذخ والنعيم كنت أبا الفدا ملكا بالاسم ، وملكاً بالفعل ، كنت شريفاً بماضيك وحاضرک ، وها أنت الى يوم الناس هذا والى غد وما بعد غد شريف في عامة أحوالك .

لم نعهد لك كما عهدنا للملوك قبلك وبعدك أن عددت الرعية كالسائمة التي تملك فيتصرف مالکها بديرها ووبرها وجلدها ولحمها ، ويعمل مطلقاً في الاستمتاع بها لا ينازعه منازع . بلى عهدناك تؤامى الضعيف ، ولا تجور على الفقير ، وتحسن للعلماء ، وتفضل على الفقهاء والادباء والشعراء ، وتصرف فضل أوقاتك في التأليف والتصنيف ، يا ثانی المأمون بعلمك وعقلك ، وثانی صلاح الدين بعدلك وجهادك .

أبا الفدا ان قومك أغفلوك وسيرتك ، بل أهملوا ضريحك ، ولو ذكروك لساروا ولو قليلا على سنتك المحمودة ، فعلمت الملوك من بعدك بسيرتك الطاهرة كما كنت في عصرک خير معلم للملوك العاديين والعلماء العاملين

أبا الفدا ان الملوك بعد عصرك جمعوا كثيراً وأضاعوا كثيراً ، جمعوا فكان ملكك بجانب ماملكو اجزاءاً صغيراً جداً ، وما خلفوا الا ما تحمر وجوههم خجلاً منه ، ويأتون في الآخرة وقد شهدت عليهم لا لهم أعمالهم ، وأنت سعدت بمن وليت عليهم وسعدوا بك ، فأبقيت ذكراً لا تمحوه الايام

أنت علمت الخلق بان القليل مع العقل يستفاد منه أكثر من الجزيل بدونه ، وان وفرة المال والعقار لا تكون من السعادة في شيء اذا لم تسبقها نفس مهذبة بالآداب والفضيلة ، وعقل يحسن التصرف بما يملك .

من لي بنظرة منك ترى ما حل بالعرب اليوم من التمزيق والتفريق ، والفساد في المعاش والمعاد ، والجهل المطبق ، وضعف العقول . رغم اخلاف من حكمت للمذلة ، وخنموا للاستبداد ، وتفرقوا تحت كل كوكب ، فرثي لهم الصديق ، وسمت بهم العدو ، وخنهم الدهر فاستخذوا ، وكل ذلك بما فعله سفهاء الاحلام من أمرائهم وعلمائهم انهم كانوا ظالمين .

قم وانظر فقد بدلت الارض غير الارض بعد عصرك : اخترع الافرنج في زماننا البخار والكهرباء ، ووفروا مرافق الحياة ، وقربوا الابعاد ، وحسنوا العيش ، أما قومك فليس لهم من مدنية القرون الاخيرة الا النظر ، وزادوا على جهلهم فساداً في أخلاقهم ، بحيث لم يبق لهم من المجد الا أن يعودوا الى صحيفة أجدادهم ويفاخروا بما تم على أيدي أمثالك ، كالقرعاء تفخر بشعر أمها ، أو العجوز الشوهاء لا تفتأ تذكر ماضي شبابه .

قالوا ان نظام الحكومات بعد أيامك ارتقى ، وانكم كنتم في عصر تقل فيه القوانين الوضعية ، وكان أكثر العمل بالقوانين السماوية . فن لنا بعصرك فان القوانين الوضعية ارتقت ولكن عند غيرنا من أهل الغرب ، والقوانين السماوية أعرضنا عنها الا قليلاً فلم نحسن تقليد المقتنين المحدثين ، ولا احتفظنا بتراث الاقدمين ، فكنا كالعقري أراد أن يمشي كالحيوان فنسى مشيته ولم يمش مثله ، بل كنا من الاخسرين أعمالاً

ألا عطفة من نظراتك الرشيدة أيها الكريم تنظر أمتك الآن الى الانقراض أقرب منها الى البقاء : كل يوم تصغر رقعة بلادها . ويتجيفها الخراب وينقصها

من أطرافها تحاول تقليد الراقين من الأمم ، فلا تراها تستطيع الا تقليدها في الموبقات والشرور ، لا في مقومات الحضارة وأساليب النهوض .
رحمك أبا الفدا ان أمثالك أنفقوا أموالهم وأموال الأمة في شهواتهم على المغنين والمغنيات ، والكواعب الغانيات ، وأنت أنفقتها على العلم والعلماء ، انهم اذا كانوا جهلة أغبياء فقد كنت العالم المؤرخ الجغرافي الطبيب الحكيم الفيلسوف ، ومصنفاتك شاهدة لك على غابر الدهر ، بأنك عالم الملوك وملك العلماء ، خلد اضرابك بسيرتهم صيت بطش وفتك ، وقطع وقت في العبث وأنت أقمت نصاب العدل على من وليت أمرهم ، فكانت أيامك رياض الازمنة وبهجة المصور ، فجزاك الله عن أمتك أجزل ما يجازى ملوكاً صالحاً عن رعيته ، وعالمات عاملاً يخدم الناس بعلمه وفضيلته اه

نحن والمسكرات^(١)

صرنا الى زمان لو قلنا لحكومتنا ان الطريقة الفلانية في الحكم أو منهج كذا في القضاء والادارة لا توافق بلادنا ولا تنطبق مع عاداتنا وشرعنا هزت رأسها وأعرضت عنا إعراضاً . وصرنا الى زمان لو قلت لاكثر أهل الطبقة العليا والوسطى من قومنا قال الله وقال الرسول رأيتم ينأون عنك ويصدون صدوداً فلعل الحاكم والمحكوم عليه اذا أتيتها بكلام جديد قاله غيرنا يلقياذ اليك بالاستماع وتلين لمقالات القلوب والطباع . قال بنتام المتشرع الانكليزي (١٧٤٨ - ١٨٣٢) في كتابه أصول الشرائع : « الحظر في الاقاليم الشمالية يجعل المرء كالابله وفي الاقاليم الجنوبية يصبح به كالجنون . ففي الاولى يكتفى بالمعاقبة على السكر لانه عمل فظيع وفي الثانية يجب منعه بطرق أشد لانه أشبه « بالتشعر » ولقد حرمت ديانة محمد (صلى الله عليه وسلم) جميع المشروبات الروحية وهذا التحريم من محاسنها »

(١) نشرت في جريدة المؤيد سنة ١٣٢٤ (١٩٠٧)

نعم حرم الاسلام الخمر ولكن أمتنا عز عليها الا أن تزهد في كل ما أتى به شرعها من المحاسن وأن تقلد غيرها فيما هم منه يشكرون ويثنون . ولو كنا أخذنا عن الغربيين النافع كما تلقفنا الضار لكان الامر وسامنا من النقد بعض السلامة ولكننا أجدنا التقليد في المضار ولم نحسن الجرى على مثالهم في المنافع .

قضى الله أن تمنى هذه البلاد بحكومة ليست منها ولا مزاجها مما يلتئم مع مزاج من تحكم عليهم . فكان من الغرب انه أخذ منذ عشرات من السنين يحارب المسكرات بكل قوته ونحن نفتتح لها السبل ونهيب الاسباب . الغرب يضرب عليها المكوس الفادحة ونحن باسم الحرية التجارية وبفضل تهاون الحكومة تقبل من ضروبها ما نعرف جوهره وما لا نعرفه . يقوم قادة الافكار في الغرب فيبينون مضار الخمر وينعون على شاربها ويضيقون المسالك في وجوه عاصريها وبائعيها وأغلب قادة الافكار منا يشربونها بلا حرج ولا نكير بل يسخرون ممن لا يشاركونهم في اثمهم ويريدونهم على أن يتشبهوا بهم ليعدوا من المتمدنين العصرين فالذنب اذن ليس على الحكومة وحدها بل عليها وعلى الاهالي أيضاً . بيد ان هؤلاء يعذرون بعض الشيء لان الحكومة لم تعلمهم التعليم الصحيح حتى يتبين لهم الضار من النافع . ومادام السواد الاعظم جهالا وخيرة الناس ليس لهم من الامر شيء فاللوم يرجع على الحكومة في الاكثر .

والغالب أن عميد الاحتلال أدرك ما تتوقع البلاد من الشرور اذا هي ظلت مسترسلة في الخمر فقال في تقريره ان الحكومة وجهت التفاتاً خاصاً الى مسألة المسكرات لانها من المسائل المهمة وانها رفضت عام ٩٠٥ - ٣٧٠ عريضة طلب اربابها رخصاً ببيع المسكرات وانها لم تعط رخصة الا بعد أن ظهر من البحث الدقيق أن معظم الاوروبيين المقيمين في جوار الحانة لا يستغنون عنها . وانه نقص ٢٧٨ من الاماكن ذات الرخصة وغيرها منها ١٧٨ محلا ليست ذات رخصة .

قال وقدمت الاتفاق مع سكة الحديد على اقفال الحوانيت التي تفتح تحت اسم « بوفيه » في جميع المحطات ماعدا الكبيرة فكلما انتهت رخصة واحدة منها لا تجدد لها مالم تكن المحطة مهمة وان القانون الحاضر لا يسرى على بيع المسكر

في زجاجات أو براميل ولذلك لم تراقب دكاكين البقالين وغيرهم من الذين يبيعون
المسكرات

قال ويظهر أن العمال في الارياف قلما يتعاطون المسكرات ؛ وقبل أن يرى
ساكنو الارياف رجلا سكران ؛ أما البنادر فبالسكر فيها أكثر انتشاراً ولكنه
ليس كثيراً لحسن الحظ ، وقال المستر متشل من أعظم عيوب نظام الامتيازات
الاجنبية أننا نسعى جهداً في منع بيع المسكر بالفرق ولا نستطيع منع عمله
وبيعه براميل

هذا كلام زعيم الاحتلال وهو كما تراه لو انصفت لا يخلو من حجة فقد
تلفظ في قوله ان أهل الارياف قلما يرون ثملاً وأن السكر شائع في البنادر وأن
الحكومة لا تعطى رخصاً ببيع المسكرات الا في المحال التي لا يستغنى عنها الغريبيون
النازلون في جوارها

كل من طاف الأرياف وخبر حال البنادر والدساكر يتضح له أن الحانات في
القرى تزداد سنة عن سنة بل شهراً عن شهر فيجىء الرومى يفتح دكان « بقالة »
ويضع برميلاً من الكحول فما هو الا أن تمضى سنة حتى يقتل كثيرين بما يسقيهم
من السم الزعاف ويروح بالمغانم فيكون له الغنم وعلى غيره الغرم وتستوى في
ذلك القرى التي فيها أوربيون لا يستغنون عن الحانات فتفتيح من أجهلهم والقرى
التي لا يكثُر في جوارها الغريبيون .

كلما نادى المنادون في التماس تعديل الادارة الحاضرة قالت لهم الحكومة
كنت أفعل لولا ما هناك من الامتيازات الاجنبية فانها تعوقني عن مباشرة أى
عمل وتغل منى اليد والساعد ولكن حصون الامتيازات ليست بالذى يصد في
الحقيقة من عمل ينتفع به الاجانب كما ينتفع به الوطنيون

تسمح الحكومة للأموري الادارة في بعض المسائل كضبط الاشخاص المشتبه
فيهم من الاجانب بدون أن يتدخل القناصل فهلا سمحت بمثل ذلك لرجال الادارة
في المسكر فتعهد اليهم أن يفتشوا المحال المشتبه في انها تبيع المسكرات بلا رخصة
أو تبيعها من الاجناس الرديئة ولا يتوقف ذلك على أخذ الشراب المشتبه به
وانتظار شهرين ريثما يحلل التحليل الكيماوى فان شوهده انه رديء فيكون

صاحبه قد صرف ما كان عنده منه وان ثبت انه جيد يحق للبقال أو الخمار أن يرفع قضية على رجال الادارة والصحة وربما ربح القضية خصوصاً اذا كان من غير رعايا الحكومة المحلية .

نعم كيف يسوغ لرجال النيابة أن يفتشوا أى مكان يرتابون أن فيه أمراً محظوراً وعملاً يخل بالراحة فإذا لم يجدوا فيه شيئاً يعفون من العقاب ولا تقام عليهم القضايا وكيف تقام القضايا على رجال الادارة اذا فتشوا محلاً عمومياً ولم يجدوا فيه شيئاً من المسكرات وغيرها فكما عهد لمأمورى الادارة أن ينظروا فى المسائل البسيطة مباشرة بدون توسط القضاة وحسنت نتيجة ذلك فقد كان الأخرى أن يعهد اليهم النظر فى مسائل المسكرات لمطاردتها وتخفيف ويلاتها عن البلاد

اذا أطلقت يد رجال الصحة والشرطة للبحث فى الحانات وعين مثلاً يوم للكشف على المشروبات ورأى البوليس شبهة قوية فى فساد الفاسد منها وأسألت له الحكومة أن يحجزها كلها حتى تتضح نتيجة التحليل الكيماوى وجوزت الحكومة للبوليس اذا اشتبه فى أى زجاجة كانت أن يفتحها فى الحال ويعمل بما يراه طبيب الصحة بدون تسويق ولا امهال — اذا أسألت الحكومة ذلك فقل ان هذه المسألة سارت الخطوة الاولى نحو الاصلاح

كل هذه الملاحظات سهلة الاجراء ولا يظن ان الامتيازات الاجنبية تحول دون تحقيقها بل ان اللوائح والقوانين الموجودة لو جرى العمل بها ولم تكن كعلم جابر — اقرأ قرح جرب تحزن — توقف تيار المسكرات عن جريه بعض الشيء

تقرأ فى القانون المصرى الجديد أنه يعاقب السكران ولو لم يعربد وكان القانون القديم مثل القانون الفرنساوى لا يعاقبه الا اذا عربد . فكم سكران يعربد كل يوم وليلة ياترى وكم سكران يقبض عليه ليعاقب فيكون عبرة لغيره ؟ وكذلك ترى فى لائحة المحال العمومية انه لا يجوز فتحها قبل الساعة ٦ صباحاً من ١٥ اكتوبر الى ١٤ ابريل وقبل الساعة ٥ صباحاً من ١٥ ابريل الى ١٤ اكتوبر وان ميعاد اقفال هذه المحال يكون فى نصف الليل ابتداء من ١٥ اكتوبر الى

١٤ ابريل وفي الساعة الواحدة بعد نصف الليل من ١٥ ابريل الى ١٤ اكتوبر .
وفي المادة السابعة عشرة من هذه اللائحة لايجوز لاصحاب المحال العمومية أو
لمستخدميها أو لخدمة فيها قبول أشخاص في حالة السكر أو بقاؤهم فيها ولا
صرف المشروبات لهم . ولكن متى نفذت هذه اللائحة ؟ وإذا لم تنفذها الحكومة
حتى الآن فمتى يكون تنفيذها ؟ أو أنها من جملة اللوائح التي هي حبر على ورق
طول بلا طول ولا طائل

وياليتنا نعرف على وجه الصحة كم يدخل المواني المصرية كل سنة من الخمر
المغشوشة وغيرها وكيف تكثر سنة عن سنة وياليت الحكومة تضرب على
واردات الخمر ضرائب فاحشة كالتى ضربتها حكومة السودان ليصعب تناولها على
الفقير ويوكل كما قلنا أمر المشروبات التي تصنع في القطر لرجال الادارة والصحة
ينظرون فيها ويضيقون على شاربها وبائعيها تضيقاً فعلياً لا اسمياً . فقد ثبت
لاهل النظر أن الخمر المصنوعة في معامل الغرب الكبرى هي أجود ما يعمل
من نوعها في المعامل الصغرى وكذلك ما يصنع في هذه لانسبة بينه وبين ما
يصنع منه في القطر

وليت شعري لم لا تجرى عليه حكومة مصر في مسألة المسكر على نحو ما تجرى
حكومة السودان ولو فعلت ذلك لما أتى بضع سنين حتى يخف شاربوه ويقل
بائعوه بيننا . ولكن حكومة تلك الجهات تريد هناك رجالا يعملون وهم صحاة
لا سكارى وفي مصر لا يهمها سكر القوم أم عربدوا ، نعم ان انكثرا نفسها في
بعض الاقاليم من أفريقية منعت المسكرات بقاتاً ولكن حكومتنا المباركة
عندنا لم تتسامح بالكحول بل أضافت اليه الخشيش فتأمل حالة أمة ينذر سوس
فساد هذه المواد القتالة عظمها ويعبث في دمه والحقها .

ماذا عرفنا من مضار الخمر ؟ عرفنا أنها تحدث نشوة في النفس وطرباً في
الفرود ونفعاً في الصحة ونشاطاً في الجسم ونضرة في الوجه وعرف الغرب منذ
أوائل القرن التاسع عشر مضارها في أزهاق الارواح وتشويه الخلقة الطبيعية
وتأثيرها في النسل والعقل وانها يزيد بها عدد المعتوهين بل كاد بعضهم لا يرى

استعمالها حتى في الادوية. يكثر السكر في الاصقاع الباردة مثل روسيا والسويد وشمالى فرنسا ونورمنديا والكلترا ولكن يكثر مناهضوه وتفكر حكوماته في الخلاص منه فأين هي مجتمعاتنا التي نخطب فيها بمضاره وأين حكومتنا من مناهضته؟ بلى انك ترى زعيم الاحتلال في تقريره مغتبطاً بأن الخمر التي دخلت السودان في العام الماضى « كانت والله الحمد » من النوع الجيد أى الذى لا يضر بصحة المأمورين والموظفين من الانكليز والوطنيين .

آه متى يكون شأن الشرق في السعى وراء المنافع سعى الغرب فيها ؟ الغرب لم يكتف بتأليف المجتمعات لمقاومة المسكرات والنعى على شاربها والتنفير منها بالقهوة والتعليم والارشاد بل عمد الى سن القوانين فاستعان بها لانقاذ أبناء الجيل الحاضر والجيل الآتى من مضار الالكحول وكانت أبدأ قوانينه تابعة للزمن سائرة بحسب سنة التكامل

هذه بلاد السويد وهي من البلاد التي يقرص فيها البرد الى التي لا فوقها ومع هذا نراها كما وصفها مكاتب الطان هذه الايام بعد أن كان يصيب الفرد فيها سنة ١٨٣٠ - ٤٠ ليتر من المسكرات أصبح لا يصيبه أكثر من ٦ لترات سنة ١٨٩٥ بفضل ما قام به قادة الافكار وتابعتهم عليه حكومتهم . أى أنه نزل معدل مقطوعية كل فرد في السنة من المسكر الى سدس ما كان عليه قبل ٦٥ سنة

بدأ الافراط في تعاطي المسكرات ببلاد السويد منذ أواخر القرن الثامن عشر لما احتكرت الحكومة الالكحول فاسترسل أهل البلاد في تعاطيها حتى كاد سبلها يحرف كل ما وقف في سبيله ولم يسكر الا بسكر منيع أقامته فئة من أهل الخير وفي مقدمتهم رجل اسمه بطرس ويزلكران عميد مدينة غوتنبورغ . جاهد هذا الرجل ثلاثين سنة حتى وفق عام ١٨٥٥ الى وضع حد لهذا السم القتال فبدأ دور الاصلاح وكان ما عرضه من الافكار أساساً لوضع القوانين الحاضرة في هذا السبيل وكلها ترمى الى معاملة بائعى المسكرات وصانعيها بالقسوة الزائدة

ضربت الحكومة السويدية على صانعي المسكرات ضرائب فاحشة وأخذت تزيدها الحين بعد الآخر حتى بلغت سنة ١٨٨٨ - ١٣٨ فرنكا على كل هكتواتر أى مائة لتر فعمجرت المعامل الصغيرة عن صنع المسكرات اذ قضى على كل معمل

إما أن يخرج أربعة هكتولترات في اليوم من الالكحول الخالصة أو يفلق أبوابه ولم تسمح الحكومة بتنزيل هذا المعدل الى هكتولترين ونصف الا سنة ١٨٧١ وحظرت أيضاً صنع الالكحول الا في شهرين من السنة فقط ثم تساحت ورخصت على توالي السنين بأن تصنع سبعة أشهر في السنة .

وكان من نتائج هذه الذرائع الشديدة أن قل في البلاد عاصرو الخمر . فبعد أن كان سنة ١٨٢٩ - ١٧٢٢ ر ١٢٤ معملا في السويد نزل سنة ١٨٩٨ الى ١٢٨ معملا وجعلت تلك الحكومة بيع المسكرات حراً في الجملة الا انها جعلت معدل ما يباع منه بالجملة ٢٥٠ لتراً وأن لا يباع بالمفرق أقل من لتر واحد ليأخذها المبتاع معه ولا يشربها في المحل الذي يشتري منه . وعاملت الحانات بالشدة الزائدة وكذلك محال بيع المسكرات فأمرت أهلها أن يخلقوا محالهم الساعة الثامنة مساء في القرى والساعة العاشرة في المدن ولم تسمح لبائع أن يتقاضى مالا من رجل ثمن خمر باعه اياه بالنسيئة .

وجعلت السويد ٤٢ فرنكا ضريبة على كل هكتولتر من الالكحول الصافي وهي ضريبة فاحشة . ومنعت كل مديرية من بيع الخمر في دائرة اختصاصها . فادى ذلك الى الغاء معظم المحال التي تباع بالمفرق بحيث أصبحت لا ترى في قرى بلاد السويد - وسكانها نحو خمسة ملايين - سوى ١٢٣ محلا لبيع المسكرات بل انك تمر في أربع ولايات ولا تجد محلا واحداً لبيعها .

وابتدعت مدينة غوتنبورغ طريقة لفتت اليها الانظار في جميع الاقطار الا وهو ان تمهد بتجارة العرق في كل مقاطعة الى جمعية تضع منها رأس المال . ولكنها لا تأخذ من الارباح الا الفائدة المعتدلة المتعارفة وتترك ما زاد عن ذلك يصرف في أعمال نافعة فنتج من ذلك ان كل جمعية من هذه الجمعيات لم تر من مصلحتها أن تطلب المزيد في توسيع أعمالها وبلغت الحال بكثير من أمثال هذه الجمعيات انها لم تعط جانباً عظيماً من الرخص التي يحق لها اعطاؤها . واذ كانت كل حانة تقدم طعاماً أصبح صاحبها لا يربح من الشراب بقدر ما يربح من الطعام ولذلك كان من مصلحته أن لا يكثر من بيع الالكحول .

وأنشأت هذه الجمعية في مدينة غوتنبورغ مثلاً مطاعم حسنة لا تقدم فيها

للمستظمين غير نوع من المشروبات فقط رأيت انه يمين على اشتباء الطعام وأنشأت في أنحاء كثيرة من المدينة غرفاً للمطالعة يدخلها في السنة نحو ثلثمائة ألف مطالع. وبهذه الطريقة نزل معدل تناول المسكرات في العشرين سنة الأخيرة الى ٤٠ في المائة بمدينة استوكهلم والى ٤٥ في مدينة غوتنبورغ وسنت السويد عام ١٨٩٢ قانوناً اجبارياً يقضى فيه على جميع المدارس أن تلتقى دروساً في طبخ المشروبات الروحية وتأثيراتها المضرة .

هذا ما قامت به حكومة السويد التي لا يحظر دينها تعاطي المشروبات وهي البلاد المشهورة ببردها وزمهريرها فما الذي قامت به الحكومة المصرية التي تحظر شربها كل مسكر وحرارة اقليمها لا تعذرها في الاستهتار والاسترسال في كرع كل ما يبتذره المخترعون من أنواعها وما يصنعه الصانعون في أرضها لبيعوا من فقيرها السكاس بلميم فيورده موارد الهلاك في دار الجحيم . فليت أهل شمالى أفريقية يعملونهم وحكومتهم ببعض ما عملت به حكومة السويد في شمالى أوروبا فان قالوا في الاحصاء الاخير ان في نيويورك وسكانها ثلاثة ملايين ونصف ١٠٨٢٠ محلاً لبيع المسكرات بالمفرق وفي باريز وسكانها مليونان ونصف ٣٠٠٠٠ وفي لندرة وسكانها أربعة ملايين ونصف ٥٨٦٠ محلاً فانا أقول ان في هذه العاصمة الاسيفة أكثر من هذا العدد يبيع لاهلها الصبوح والغبوق من فاسد الالكحول فيفسد الاجسام والمقول

الماك وبوالاسراف^(١)

في الشريعة السمحة آداب اجتماعية عالية لو عمل بها المسلمون لما لحقت غبارهم أمة في مكارم الاخلاق وتهذيب النفوس . فلو عمل المسلم بشريعته فاخرج الزكاة مثلاً لما رأيت اليوم فقيراً ولا جائعاً ولا عرياناً ، ولوتجانب الكذب والتزوير وأكل المال بغير حق لما اشتغل القضاة طول النهار بفض الخصومات بين الناس